الرحمة في التشريع الإلهي
بين
القرآن الكريم والكتب المحرفة
دراسة تحليلية مقارنة

إعداد:
د. فادي بن محمود الرياحنة
استاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن
جامعة طيبة –المدينة المنورة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

إن نعم الله -عز وجل- على عباده كثيرة، ومن أعظم النعم التي امتَنّ الله بها على هذه الأمة أن خصها بهذا النبي الكريم عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، وخصها بهذا الكتاب، الذي هو أفضل الكتب وأتمها وأكملها.

وإذا كان ﷺ هو خاتم النبيين، فإن القرآن الذي أنزل عليه خاتم الكتب المنزلة.

تكفل الله بحفظه من عبث العابثين وزيغ المحرفين. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

أما الكتب السماوية السابقة فإنها لما كانت لأقوامهم خاصة وكانت مؤقتة بزمن ينتهي بنزول ما ينسخها لم يتكفل الله لها بالحفظ. فوقع عليها التحريف والتزييف. قال جل وعلا: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦]، وقال في سورة البقرة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [البقرة:٧٩].

ومن بين جوانب هذا العبث الذي طال تلك الكتب هو تحريفهم لـ (مفهوم الرحمة في التشريع) المنزل من عند الله، ولا أدل على ذلك ما نجده في الكتاب المقدس -لاسيما العهد القديم- من أن آدم حين عصى ربه لم يغفر الله له وإنما توعده ولعن الأرض بسببه.

يقول الكتاب المقدس[1]: [وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ][2].

وفي الكتاب المقدس -في عهده الجديد- نجد أيضًا مثل ذلك فقد رتب الله على معصية آدم خطيئة لا يمكن غفرانها. وجعل الخلاص من هذه الخطيئة على يد شخص نصفه إنسان ونصفه إله. حيث تحتم قتله ليتحمل هذه الخطيئة عن البشر وبذلك يتوب الله ﷻ على خلقه المخطئين

يقول الكتاب المقدس: [وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. أَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ

(١) يستخدم النصارى مصطلح «الكتاب المقدس» للإشارة إلى كتابي العهد القديم، وهو كتاب اليهود المقدس؛ والعهد الجديد، وهو الأسفار التي تتضمنها الأناجيل الأربعة ويشتمل العهد القديم على الأقسام التالية أولًا: أسفار موسى الخمسة، وتعرف باسم التوراة.وهي سفر التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية؛ ثانيًا: أسفار الأنبياء وهي: سفر يشوع القضاة، صموئيل الأول والثاني، الملوك الأول والثاني. ثالثًا: أسفار ما وقع للأنبياء وهي: أشعياء، وإرميا، وحزقيال، هوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، يونس، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.. وقد اتخذ كل سفر منها اسم "الكتاب المقدَّس".

(٢) سفر التكوين الإصحاح ١٧: ٣-١٩

مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ، وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ...] (١)

هذا مثال واحد يوضح ما آل اليه مفهوم الرحمة عندهم والذي هو في أصل نزوله يعد قاسمًا مشتركًا بين جميع الكتب السماوية قبل تحريفها والعبث في أصولها.

ففي القرآن الكريم كتاب الله المحفوظ في السطور والمكتوب في السطور الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢] نجد ان آياته الكريمة قد استفاضت بالتصريح أحيانًا وبالتلميح أحيانًا في بيان هذا الأصل العظيم وتقريره والتأكيد عليه. ففي مقابل تحريف أهل اكتاب لمفهوم الرحمة لآدم نجد أن آدم عليه السلام لم يحتج إلى شيء بعد معصية الله إلا إلى التوبة النصوح. فلما تاب توبة نصوحًا، تاب الله عليه ورحمه رحمة واسعة. يقول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧].

وما يلفت الأنظار أيضًا في كتاب رب العالمين أننا نجد جميع آياته الكريمة قد تزينت بالرحمة في الأحكام والتشريعات والتيسير على العباد في ذلك، ورفع للحرج عنهم، والشواهد على ذلك كثيرة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة] ومن الشواهد أيضًا على تقرير مبدأ الرحمة هو إعفاء المرضى والمسافرين من الصيام. والتعجيل ببيان هذه الرخصة فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤]

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤: ٣-١٩

واختتم ذلك في تقريره لقاعدة شرعية عامة كلها رحمة ورأفة ولطف فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وفي مقابل هذه الرحمة المهداة في القرآن الكريم نجد أن البون بينه وبين الكتب السماوية -المحرفة عن أصلها وحقيقتها- شاسع، والمسافة هائلة.

فإنك نقرأ في سفر حزقيال: [وَاضْرِبُوا لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ. اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ][1]، وفي سفر العدد: [فَالآنَ اقْتُلُوا كُل ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ وَكُل امْرَأَةٍ][2] وفي سفر يشوع [وَضَرَبُوا كُلَّ نَفْسٍ بِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمُوهُمْ. وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ. وَأَحْرَقَ حَاصُورَ بِالنَّارِ .فَأَخَذَ يَشُوعُ كُلَّ مُدُنِ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَجَمِيعَ مُلُوكِهَا وَضَرَبَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمَهُمْ كَمَا أَمَرَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ] وفي سفر صموئيل الأول: [فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلاً وَحِمَارًا وَأَمْسَكَ أَجَاجَ مَلِكَ عَمَالِيقَ حَيًّا، وَحَرَّمَ جَمِيعَ الشَّعْبِ بِحَدِّ السَّيْفِ][3].

فبمثل هذه المقارنة وأمثالها يتضح كيف أن القرآن الكريم جعل الرحمة قرينة لأحكامه وتشريعاته وكيف كانت -الرحمة- في أسلوب تكاليفه وألفاظه، ولبيان ذلك اكتب هذا البحث الوجيز لتقديمه إلى المؤتمر الدولي الرحمة في الإسلام الذي سيعقد في رحاب جامعة الملك سعود الزاهرة واقفًا عند تلك المواطن والشواهد والدلائل المتحدثة عن الرحمة في التشريع وبيان انحرافات اليهود والنصارى في ذلك مع مقارنتها بما جاء في تشريعات القرآن الكريم مع ملاحظة أنه قد يستاء البعض من عقد مثل هذه المقابلات بين القرآن الكريم وتشريعاته الحقة، وتشريعات اليهود في التوراة والنصارى في الإنجيل الباطلة المبدلة.

(١) سفر حزقيال الإصحاح ٩: ٦
(٢) سفر العدد الإصحاح: ٣١: ١٧
(٣) سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٥: ٣

لذلك يجب التأكيد على انه لن يضير القرآن الكريم ذلك أبدًا بل هي مقابلة محمودة، لأن الشريعة الإسلامية كما قال الإمام الشاطبي بحق: "شريعة مباركة معصومة، كما أن صاحبها ﷺ معصوم، وأمته فيما اجتمعت عليه معصومة، وليس الحفظ الإلهي قاصرًا على القرآن بل شامل للشريعة دائم إلى أن تقوم الساعة"[1]، وفي إطار ذلك فإنه يمكن الحديث عن هذا الموضوع ضمن المحاور التالية:

المبحث الاول: الرحمة هي القاسم المشترك بين جميع الشرائع السماوية الحقة في صورتها الأولى.

المطلب الأول: الرحمة في القرآن الكريم محفوظة بحفظ الله لكتابه.

المطلب الثاني: انحراف مفهوم الرحمة في الديانة اليهودية.

المطلب الثالث: انحراف مفهوم الرحمة في الديانة النصرانية.

المبحث الثاني: شواهد ودلائل الرحمة في تشريعات القرآن الكريم في مقابل التشريعات الأخرى.

المطلب الأول: الرحمة في تشريع أحكام العبادات في مقابل التشريعات الأخرى «الصوم نموذجًا».

المطلب الثاني: الرحمة في تشريع أحكام المعاملات في مقابل التشريعات الأخرى «معاملة الوالدين نموذجًا».

المطلب الثالث: الرحمة في تشريع أحكام العقوبات في مقابل التشريعات الأخرى «عقوبة السرقة نموذجًا».

المبحث الثالث: الرد على شبهة وحشية التشريع في القرآن الكريم في مقابل التشريعات الأخرى.

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، ٣٨/٢

المطب الأول: مضمون الشبهة

المطلب الثاني: وجوه بطلان الشبهة

خاتمة، وتوصيات. ثم المراجع

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المبحث الأول
الرحمة هي القاسم المشترك بين جميع الشرائع السماوية الحقة في صورتها الأولى

جاءت الشرائع السماوية كلها من لدن آدم حتى مبعث النبي محمد ﷺ بهدف نشر التسامح والرحمة، وتوحيد الاعتقاد لله عز وجل ونبذ الحقد والكراهية بين الناس. يقول تعالى في سورة الأنعام واصفًا التوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام:١٥٤] وفي سورة المائدة يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤] ويقول أيضًا في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وعن الإنجيل المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام، يقول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة] ويبين القرآن الكريم أن العمل بالإنجيل -الحق- سبب السعادة في الدنيا والآخرة، كما في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وعن القرآن الكريم خاتم هذه الكتب يقول تعالى في سورة الأعراف واصفًا القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]. في سورة يونس يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وفي سورة النحل قال ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]. وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل:٧٧].

إلى غير ذلك الكثير من الشواهد القرآنية الدالة على أن الله عز وجل ما أرسل من رسل، وما أنزل من كتب الا رحمة بالبشرية، ومن أجل إسعادها حتى مبعث النبي محمد ﷺ حيث فيه اكتمل الدين واكتمل البناء. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وقال ﷺ: «انما مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا، فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء»[1].

لكن لما تكفل الله بحفظ قرآنه الكريم ولم يتكفل بحفظ غيره من هذه الكتب حرف علماء وأحبار أهل الكتاب، التوراة والإنجيل، لتحقيق أهدافهم ومصالحهم الخبيثة فزالت بذلك عنها صفة الرحمة بزوال كونها إلهية المصدر، وبقيت محفوظة في القرآن الكريم بحفظ الله لكتابه، وفي المطالب القادمة ما يوضح هذا الأمر ويجليه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤/ ١٧٩٠، حديث رقم ٢٢٨٧

المطلب الأول
الرحمة في القرآن الكريم محفوظة بحفظ الله لكتابه

للرحمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة وواسعة، فلا تكاد تجد قضية تناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها، ومن أبرز ما يميز هذه الرحمة في كتاب الله تعالى أنها محفوظة بحفظ الله لكتابه وستبقى إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ومن أبرز مظاهر هذه الرحمة في القرآن الكريم. ما يلي:

أولًا: اشتقاق اسمين من أسماء الله الحسنى من الرحمة.

أن من أوائل السور نزولًا في القرآن هي سورة الفاتحة، حيث جاءت الأولى بترتيب المصحف، ولا شك ان في ذلك دلالة كبيرة وهي ان سورة الفاتحة بمثابة مقدمة لكل معاني القرآن الكريم، قال الله تعالى في بدايتها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:١-٢] فقد بدأت آياتها بالبسملة وفيها الرحمة البالغة، وتوسطت آياتها أيضًا بالرحمة، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم جاءت بعد ذلك آيات القرآن الكريم وسوره جميعًا تترى وقد تزينت بهذه الصفة العظيمة من صفاته ﷻ، قال تعالى في سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:١-٢]، ويقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣] وفي سورة الحشر يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر] وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣] وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧].

فكل ذلك بلا شك فيه إشارة إلى سعة رحمته تعالى بخلقه. يقول رسول الله ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»(١).

ثانيًا: الرحمة في مبعث النبي للعالمين

فمن رحمة الله تعالى وفضله أنه بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. قال ابن الجوزي قال ابن عباس: "هذا عامّ للبَرِّ والفاجر، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة"(٢).

ويشير القرآن الكريم أيضًا إلى أن الرسول ﷺ كان شديد الرحمة والرأفة بالمؤمنين خاصة يقول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة]. ويقول في آية أخرى بنفس السورة: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦١].

ويبين القرآن الكريم أن النبي لو كان فظًا غليظ القلب لانفض الناس من حوله. ولكنه ﷺ كان لينًا ورفيقًا بالناس. ولقد أمر النبي بالعفو عن الناس ومسامحتهم والاستغفار لهم. والمسلمون مأمورون باتباع النبي ﷺ والاقتداء به، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، ٨/ ٨
(٢) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ ٣/ ٢١٨

عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران]. وقال أيضًا: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ [التوبة].

فكل هذه الشواهد من القرآن الكريم تدل دلالة واضحة على أن مبعث النبي ﷺ فيه الرحمة المهداة للعالمين، وكما قال الإمام القرطبي في تفسيره: "فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خُلِقَ بنفسه رحمة، فلذلك صار أمانًا للخلق، لما بعثه الله أمن الخلق العذاب إلى نفخة الصور. وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا المحل؛ ولذلك قال ﷺ: «أنا رحمة مهداة» يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله. وقوله «مهداة» أي: هدية من الله للخلق"[1].

ثالثًا: القرآن الكريم نفسه رحمة: في أحكامه، وألفاظه، وتوجيهاته، وتعاليمه:

الرحمة صبغة ظاهرة في القرآن الكريم. فقد ورد ذكرها في مختلف سور القرآن في نحو ثمانية وستين ومائتي مرة، ولا شك أن في ذلك دلالة كبيرة على أنها من مفاهيم القرآن وأصوله المتينة الثابتة والراسّخة كيف وهو دينُ الرَّحمة بكلّ صورها، وعلى عكس الكتب السماوية السابقة فقد ضاعت مثل هذه المفاهيم بالتحريف المتعمد على أيدي أحبارهم ورهبانهم. وفي المطلب القادم أبين جانبًا من هذا التحريف.

المطلب الثاني

انحراف مفهوم الرحمة في التوراة

إن ما كتب النصارى واليهود من أناجيل وتوراة محرفين به شرع الله لا

(١) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م ٤/ ٦٣

يمكن بحال قبوله ولا يمكن اعتباره توراة أو إنجيلًا. هذا ما أخبر به الحق ﷻ في كتابه الكريم، حيث قال في سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦] وفي سورة والبقرة يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

قال القرطبي في تفسيره هذه الآية: "قال علماؤنا رحمة الله عليهم: نعت الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدلون ويحرفون... وذلك أنه لما درس الأمر فيهم، وساءت رعية علمائهم، وأقبلوا على الدنيا حرصًا وطمعًا، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم، فأحدثوا في شريعتهم وبدلوها، وألحقوا ذلك بالتوراة، وقالوا لسفهائهم: هذا من عند الله؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رياستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها"(١).

اذن فمن خلال هذه الآيات. يؤكد الحق جل وعلا تحريف أهل الكتاب اليهود والنصارى لكتبهم، وأن أززديانهم هذه ما هي إلا أديان مبتدعة، قائمة على الشرك بالله والكذب عليه ﷻ. وعلى هذا كيف لها أن تجمع بين الكذب والخداع، والرحمة في آن واحد -نقيضان لا يجتمعان- وفيما يأتي اذكر صورًا توضح زوال مفهوم الرحمة فيها بزوال كونها من عند الله عز وجل.

الصورة الاولى: تحريفهم لصفة الرحمة كصفة من صفات الله عز وجل

الرب عند اليهود هو الذي يمهد لهم السبيل لتحقيق أغراضهم في الحروب وطرد الشعوب وإحراقها، جاء ذلك صريحًا في سفر التثنية

(١) القرطبي، محمد بن احمد الانصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت -١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ٢/ ٧

حيث يقول: [الرب يطرد من أمامك شعوبًا أكبر وأعظم منك][١]، وفيه أيضًا: [الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك][٢].

وهذا الرب عند اليهود في توراتهم المحرفة هو رب قاسٍ متوحش لا يعرف الرحمة بالإنسان أو الحيوان، جاء في سفر التثنية: [الرب إلهك في وسطك إله عظيم ومخوف][٣] وفيه أيضًا يقول: [فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارًا آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك، فتطردهم وتهلكهم سريعًا كما كلمك الرب][٤].

الصورة الثانية: الرحمة المذكورة في التوراة هي رحمة خاصة باليهود فقط دون غيرهم من الأمم.

فعلى الرغم من وجود بعض النصوص التي تتحدث عن الرحمة في التوراة والمزامير إلا ان هذه الرحمة والرأفة يفسّرها اليهود بأنها خاصة بهم لا لغيرهم لانهم شعب الله المختار جاء ذلك صراحة في تلمود سنهدرين: [إذا ضرب أُمَمي[٥] إسرائيليًا فالأممي يستحق الموت][٦].

ولا شك أن سبب هذه القسوة والشدة أن اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم من الشعوب ما هم إلا عبيد يجب ضربهم وسحقهم. بل انهم لم يصلوا حد كونهم بشرًا، جاء ذلك في سفر اللاويين حيث يقول: [أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب] [٧]، وفيه -أيضًا- [تكونون لي قديسين، لأني قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي][٨].

(١) سفر التثنية الإصحاح، ٤: ٣٨
(٢) سفر التثنية الإصحاح ٧: ٢١
(٣) سفر التثنية الإصحاح ٧: ٢٢
(٤) سفر التثنية الإصحاح ٩: ٣
(٥) المقصود: أي إنسان غير اليهودي
(٦) تلمود سنهدين ص ٢٢ وانظر: يحي على يحي، التحدي الصهيوني للدعوة الإسلامية في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة امدرمان الإسلامية قسم مقارنة الأديان ١٤١٦هـ ١٩٩٤-١٩٩٥م
(٧) سفر اللاويين الإصحاح ٢٠
(٨) سفر اللاويين الإصحاح ٢٠

ويحكى السفر أن الرب مهما غضب على بني إسرائيل لعصيانهم فانه لا يتركهم حتى وهم مشتتون متغربون في ارض أعدائهم: [والأرض تترك منهم وتستوفي سبوتها في وحشتها منهم، وهم يستوفون عن ذنوبهم لأنهم قد أبوا أحكامي، وكرهت أنفسهم فرائضي، ولكن مع ذلك متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم، وأنكث ميثاقي معهم، لأني أنا الرب إلههم، بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلها أنا الرب][1]

ونستطيع أن نستنتج من تلك الصورة الغريبة – التي يصور بها سفر اللاويين أنه لم يكن هو رب العالمين المستحق للعبادة. بل هو اله خاص باليهود لا يأمرهم بل يأتمر بأمرهم، ولا يعاقبهم مهما اخطاوا، بل يحارب من أجلهم، ويطرد الشعوب من أمامهم.

الصورة الثالثة: استبدالهم الرحمة بسكان المدن التي يدخلوها بحرقها

جاء في سفر العدد: [إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم][2]

وفي سفر التثنية: أن يوشع بن نون أمر جنودَه بأن يحرقوا مدينة "أريحا" بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال: [حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك

(١) سفر اللاويين الإصحاح ٢٦
(٢) سفر عدد الإصحاح ٣٣: ٥٦

الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا][1].

الصورة الرابعة: استبدالهم الرحمة بنساء وأطفال العدو بقتلهم وإبادتهم:

يوجد في التوراة نصوص كثيرة تدعو بكل وضوح إلى القتل الجماعي، الإبادة الجماعية للشعوب، بدل التراحم بينها، فقد جاء فيها: [الآن إذن اضرب آمالك، واحظر عليه كل ما يملك، ولا تترك له شيئًا، اقتل الكل، الرجال والنساء والأطفال والرضع والأبقار والخراف والجمال والحمير].[2]

كانت هذه بعض الصور المنتقاة من بين نصوص كثيرة تصور في مجموعها بعض الانحرافات والقبائح التي نسبتها هذه الأمة إلى كتب الله تعالى المنزلة على أنبيائه الأطهار، -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- حيث استبدلوا فيها مفهوم الرحمة المهداة التي تنزلت فيها بهذه النصوص المحرفة الداعية إلى قتل الأطفال والنساء والضعفاء - ولا شَكّ أن التوراة في اصل تنزلها بريئة من هذه الجرائم المريعة، وكذلك أنبياء الله ورسله فإن الله تعالى وأنبياءه لم يأمروا قط بقتل النساء والأطفال الأبرياء. كيف والله ﷻ يقول في سورة المائدة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

كما أنه لا يوجد في القرآن الكريم آية واحدة تأمر بقتل نساء أو أطفال العدو. بل على العكس، يَأمر القرآن المسلمين بالتَعَامُل بعدل وبلطف مَع كُلّ الأبرياء من البشر. وحتى فيمن يقاتل المسلمين منهم. قال تعالى عنهم

(١) سفر التثنية الإصحاح ٢٠: ١٥
(٢) سفر صموئيل الأول ١٥: ٢

في سورة البقرة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ [البقرة:١٩٢] وقال أيضًا في الآية التي تلتها: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

وقد كان النبي ﷺ يحذر الجيوش التي يرسلها قائلًا لها: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأة».[1] كما رغب النبي ﷺ في الرحمة والشفقة على خلق الله صغارًا كانوا أو كبارًا، رجالًا كانوا أو نساء، وقد ورد في ذلك أدلة كثيرة منها: وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»[2].

فاين هذه الرحمة المهداة من تلك الافتراءات المكذوبة على الله عز وجل وعلى أنبيائه الأطهار؟ ولا شك أن هذا الوصف للإله ما هو إلا من وضعهم وتحريفهم حتي يبرروا أفعالهم الخبيثة فقد ذكر لنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام ما عرف إلا الإله الحق الذي يتنزه عن صفات التي ذكروها.

ففي اجوبته على الأسئلة التي وجهت له ولأخيه هارون عليهما السلام عن الإله: (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى) فأجاب: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه].

ثم جعل موسى عليه السلام يعدد بعض صفات الإله الحق فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه:٥٣-٥٤]، فهو رب لا كما وصفه هؤلاء الأحبار.

(١) رواه أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، المحقق: محمد محيي الدين، مكتبة العصرية، بيروت، باب في دعاء المشركين، رقم (٢٦١٤) ٣/ ٣٨، والحديث ضعفه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود ص: ٢، وضعيف الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، برقم (١٣٤٦)، ص: ١٩٤

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٨٥

المطلب الثاني
انحراف مفهوم الرحمة عند النصارى

يتفق المسلمون مع النصارى على أن أصل الإنجيل كتاب الله أنزله على نبي الله عيسى، وفيه حكم الله وهدى ونور ورحمة لكن في نفس الوقت يؤمن المسلمون بأن إنجيل اليوم ما هو إلا كتاب بشري زالت عنه صفة الرحمة بزوال صفة كونه إلهي المصدر، وفيما يأتي بعض الصور المنقولة منه والتي تؤكد هذا التحريف

الصورة الأولى: الرحمة في الإنجيل تتعارض مع صفة العدل الإلهي:

يعتقد النصارى أن المسيح صلب ليكفر الخطيئة الأزلية، -وهي التي ارتكبها آدم عليه السلام وزوجه-، وانتقلت (الخطيئة أو آثارها) بطريق الوراثة إلى جميع نسله، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم القيامة، لولا أن افتداهم المسيح بدمه كفارة عن خطاياهم[1].

وأساس هذا الموضوع عند النصارى:

أن من صفات الله العدل والرحمة، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوهم وطرد بها من الجنة واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله الوحيد ليموت على الصليب كفارة ونيابة عنهم، وبهذا العمل يكون الله قد جمع بين عدله ورحمته مع الإنسان وأخذ العدل حقه، وظهرت رحمة الله [2]..

(١) وافي، علي عبدالواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، نهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م ص ٩٠-٩١.

(٢) انظر: الدسوقى، رمضان مصطفى، جهود علماء المسلمين في نقد الكتاب المقدس من القرن =

وقد كتب إسحق (اسحق السريانى) -أحد أسقف نينوى- يقول: "إن الرحمة تتعارض مع العدل. فالعدل هو تساوي كفة الميزان المتكافئ، لأنه يعطي كل واحد ما يستحقه.. لكن الرحمة، من ناحية أخرى، هي الأسى والشفقة التي يحركها الصلاح، وهي على نحو شفوق تجعل الإنسان يميل تجاه الجميع؛ هي لا تجازى الإنسان الذى يستحق الشر، وكما أن العشب والنار لا يتواجدان في مكان واحد، هكذا العدل والرحمة لا يمكن أن يسكنا في روح واحدة"(١).

الصورة الثانية: اللعنة على الأرض بدل الرحمة:

نقرأ في سفر التكوين -في زعمهم- أن آدم حين عصى ربه لم يغفر الله له وإنما توعده ولعن الأرض بسببه. حيث جاء فيه: [وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ].(٢)

ففي هذا النص نلحظ بوضوح ذلك العقاب الأبدي لآدم وحواء عليهما السلام، ونلحظ أيضًا شدة تلك العقوبة المتمثلة في لعن الأرض كلها، وقد بقيت -بزعمهم- هذه العقوبات واللعنات من لدن آدم حتى جاء المسيح الفادي مخلصًا لهم مما تسبب لهم فيه آدم عليه السلام..

الرد على مفهوم الرحمة عند النصارى:

يرى المسلمون في هذا المعتقد النصراني انحرافًا وتجافيًا عن المعقول

= الثامن الهجري إلى العصر الحاضر «عرض ونقد»، رسالة دكتوراه، مكتبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر -١٤٢٤ ص: ٣٦٧

(١) انظر: بيشوى، لنيافة الأنبا، ملاحظات حول مفهوم الرحمة والعدل في كتابات اسحق السرياني، ص ٢

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ١٧: ٣

والمنقول، فإن فيه إساءة أدب مع الله عز وجل وكفرًا به كان ينبغي أن ينزهه النصارى عنه، فقولهم: بتناقض العدل مع الرحمة قرونًا حتى جاء الحل بصلب المسيح رحمة من الرب بالعالمين[1].. ونقول للرد عليهم إن ذلك الزعم:

أ. يظهر الله عز وجل -وحاشاه- وكأنه عاجز عن الرحمة والعفو عن آدم عليه السلام، حائر في الطريقة التي ينبغي أن يعاقبه بها بعد أن قرر عقوبته. -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا-.

ب. كما تظهر أيضًا أن قرار العقوبة وكأنه قرار متسرع يبحث الله له فيه عن مخرج، وقد امتد البحث عن هذا المخرج قرونًا عديدة، ثم اهتدى إليه، فكان المخرج الوحيد هو ظلم عيسى عليه السلام وتعذيبه على الصليب كفارة عن ذنب لم يرتكبه[2].

وعلى هذا يمكن القول لهؤلاء:

إنه قد فاتكم وجود بدائل كثيرة مقبولة ومتوافقة مع سنن الله الماضية في البشر، وهي جميعًا أولى من اللجوء إلى صلب عيسى عليه السلام -بزعمهم- تكفيرًا للخطأ الذي ارتكبه آدم عليه السلام ومن أعظم هذه البدائل هو باب التوبة. ففي الحديث القدسي يقول الرب تبارك وتعالى: «يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي: إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا»[3].

(١) انظر: العثماني، محمد تقي، ما هي النصرانية، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ١٩٨٤م. ص ٧٨ وانظر: الشاهين، أميمة أحمد، الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام، دار زهراء الشرق. القاهرة. ١٤٠.

(٢) السقار، منقذ بن محمود، هل افتقدنا المسيح على الصليب، - دار الإسلام، مكة المكرمة ٢٠٠٧م ص١٣٩

(٣) رواه: مسلم، الصحيح ٤/ ١٩٩٤.

فالقرآن الكريم يعلنها صراحة أن مغفرة الخطايا لا يمكن الحصول عليها بعذاب أو بموت إنسان، ولكن المغفرة تتم بالتوبة إلى الله تعالى، والمثابرة على فعل الخير. وهكذا عندما عصى آدم ربه، لم يحتج إلى شيء بعد ذلك إلا إلى التوبة النصوح. فلما تاب تاب الله عليه ورحمه رحمة واسعة. يقول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة:١٩٢].

وهذا هو حال الإسلام والقرآن مع باقي البشر، فهي رحمة لا نظير لها في غيره من الأديان. فهي رحمة قريبة من المحسنين. فإذا عصى المسلم ربه ثم دعا ربه خوفًا وطمعًا، نال رحمة الله تعالى ورضوانه. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف].(١)

وللحديث عن هذه الرحمة الواسعة أفردت لها مبحثًا خاصًا من هذا البحث. فيما يأتي تفصيله. ولذلك سأقتصر في حديثي عن هذه الرحمة على بعض أحكامه وتشريعاته وقد اخترت نموذجًا واحدًا من كل واحد منها.

(١) أما بخصوص الرد عليهم فيما ادعوه بتعارض الرحمة مع العدل فسيأتي الرد عليهم في المبحث الأخير مفصلًا.

المبحث الثاني
شواهد ودلائل الرحمة في تشريعات القرآن الكريم في مقابل التشريعات الأخرى

قد تبدو بعض الأحكام والتشريعات التي نزل بها القرآن الكريم شاقة وثقيلة على النفوس المطبوعة على الضعف والقصور. ولكن الله عز وجل العليم بعباده وبضعفهم، لم يكلف عباده عنتًا ولم يوقع عليهم حرجًا في دينهم. بل جعل ﷻ الرحمة واللطف قرين تلك الأحكام المنزلة[1] يقول الله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]؛ ويقول أيضًا في سورة البقرة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ وفي سورة النساء يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء] وأختم هذه الأدلة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وفيما يأتي نماذج من تلك الرحمات في هذه الأحكام[2] اتحدث عنها مرتبة من خلال المطالب التالية:

(١) انظر: ابن حميد، صالح بن عبدالله، رفع الحرج والتيسير في الشريعة الإسلامية، ضوابطه وتطبيقات، رسالة دكتوراه، جامعة ام القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٩٨١م

(٢) انظر: العمودي، صالح أحمد شواهد الرحمة في آيات الصيام، http://www.islamtoday.net/bo-hooth/artshow-86-199424.htm الإسلام اليوم

المطلب الأول
الرحمة في تشريع أحكام العبادات
في مقابل التشريعات الأخرى «الصيام نموذجًا»

إن الناظر في آيات القرآن الكريم يجد أن الصيام كان أصلًا من أصول التشريع في الرسالات السابقة، وأنه كان ذا أركان وشروط.. معينة، والقرآن الكريم أصدق دليل على ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

فالصيام إذن مشروع في جميع الرسالات السماوية، ثم تغير مفهوم الصيام عند أهل الكتاب وتحرف عن مفهومه والغاية منه والرحمة التي تنزل من أجلها.

جاء في تفسير القرطبي عند تفسير الآية المذكورة: "أن الشعبي وقتادة وغيرهما قالوا: إن الله كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان، فغيروا وزاد أحبارهم عليه عشرة أيام، ثم مرض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد في صومهم عشرة أيام ففعل، فصار صوم النصارى خمسين يومًا، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الربيع"(١).

ومن يطالع كتب التاريخ وأسفار العهد القديم والجديد يرى أن أحبار اهل الكتاب ورهبانهم قد اجتهدوا بتحريفهم في إيجاد أنواع من الصيام ما أنزل الله بها من سلطان، بحيث لا تتلمس فيها الغاية أو الرحمة التي من أجلها شرع الصيام، وقبل الحديث عن ذلك أقف في هذا المطلب للحديث عن الرحمة الإلهية في تشريع أحكام الصيام في مقابل هذه الشرائع المحرفة ضمن الخطوات التالية.

(١) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة طبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م/ ٢ ٢٧٦

أولًا: الرحمة في تشريع الصيام في الإسلام:

من بين التكاليف التي تبدو شاقة وثقيلة فريضة: الصيام. فالنفوس تستثقلها، لأنها عبادة تدعو إلى التغلب على شهوات النفس والتحكم في مطالبها ورغائبها وإخضاعها للأمر والنهي، . وقد نزل تشريع الصيام في آيات متتالية من سورة البقرة يقول تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥].

وفيما يأتي شواهد الرحمة الربانية التي بدت من خلال هذه الآيات.

أ. الرحمة في تشريع الصيام على ثلاث مراحل فمن رحمة الله تعالى بعباده أن يأتي تكليف عباده بالصيام على ثلاث مراحل[1].

المرحلة الأولى صيام عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر.

المرحلة الثانية: صيام رمضان لمن شاء من العشاء إلى المغرب من اليوم التالي.

المرحلة الثالثة: فرض الصيام كما هو اليوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وذلك في قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ

(١) انظر: زيدان، عبدالكريم، أصول الدعوة؛ مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة ٢٠٠١ص٤٥.

أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

فبهذا نرى المنهج الحكيم -التدرج في التشريع- الذي اتخذه القرآن الكريم في تشريعاته بشكل عام وفي فريضة الصيام بشكل خاص وليس ذلك إلا من أجل تهيئة النفوس لاستقبال هذه العبادة حتى إذا أحست النفس بحلاوة هذه العبادة واطمأنت بها، أكمل الله كل الأسس والقواعد التي تحكمها.

ب. الرحمة في النداء الذي يستنهض الهمة للاستجابة.

ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ نداء يتضمن رحمة بالمؤمنين. يدعو النفس إلى ترقب ما بعد النداء يقول الطاهر بن عاشور: «وافتتحت بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لما في النداء من إظهار العناية بما سيقال بعده»[1].

ج. الرحمة في تسلية المؤمنين حال تحملهم لهذا التكليف أجل

وفي قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تسلية للمؤمنين حتى يتصبروا في حمل هذا التكليف، يقول ابن عاشور: «في التشبيه بالسابقين تهوين على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم؛ فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب»[2] أجل

د. الرحمة في بيان الغاية التي تعود على المكلف نفسه بالنفع

وفي قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ذكر الله الغاية من الصوم وهي حصول التقوى. وهي أعظم ما يتمناه المؤمن فإذا علم المؤمن أن الصوم قائد إلى تلك الغاية الغالية أقبل إليه مسرعًا.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤ هـ، ٢/ ١٥٤
(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤ هـ ٢/ ١٥٦

ه. الرحمة في تقليل أيام الصيام بجعلها معدودة من العام.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: يقول ابن كثير: «بين الله مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم لئلا يشق على النفوس، فتضعف عن حمله وأدائه، بل أيامًا معدودات»[1] أجل

و. الرحمة في إعفاء المرضى والمسافرين من الصيام.

في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يقول العلامة القرطبي في معنى «مريضًا» للمريض حالتان: أحدهما ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبًا، الثانية أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهلاً.[2]

وبعد فهذه بعض شواهد الرحمة الربانية التي تبينت في آيات الصيام، والمؤمن إذا استشعر هذه الرحمة وتفيأ ظلال رحمة الله البر الكريم الرؤوف الرحيم فإنه بلا شك سيجد في نفسه سعادة روحية تطفأ عنه عطش هذا الصيام وتذهب عنه جوعه. وفي مقابل هذه الرحمة المهداة نجد أنها قد رفعت ونزعت من كتب اليهود والنصارى المحرفة - على ما سنوضحه.

ثانيًا: انحراف مفهوم الرحمة في تشريع الصوم عند اليهود:

أمام الرحمة في تشريع الصيام في القرآن فنجد ان اليهود انحرفت مفاهيمهم فيه كباقي تشريعات التوراة المنزلة، وانتفت صفة الرحمة في

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ١/ ٤٩٧

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ٢/ ٢٧٦

صيامهم المكذوب. حيث اتسع مفهوم الصوم عندهم كثيرًا وذلك راجع إلى تحريفهم – في إيجاد أنواع منه، جُلّها مرتبط بالحدث التاريخي، وما أفرزته طبيعتهم العدائية للأمم التي عايشوها والتي غلب عليها طابع الحزن؛[١] فقد جاء في الكتاب المقدس: [وعندما مات الملك شاؤول طالوت وأولاده صام الأشخاص الذين قبروهم سبعة أيام حزنًا عليهم وأسفًا لوفاتهم].[٢]

ومن خلال سفر صموئيل الثاني يتضح أن التقشف كان يمارس أثناء الصوم كالنوم على الأرض، وعدم تغيير الملابس، والامتناع عن العطور، والامتناع عن الغسل، والصوم عند اليهود نوع من الإذلال النفسي ينص سفر اللاويين على هذا فيقول: [ويكون لكم فريضة دهرية. إنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر. تذللون نفوسكم، وكل عمل لا تعملون...، وتكون هذه لكم فريضة دهرية للتكفير عن بني إسرائيل من جميع خطاياهم مرة فى السنة ففعل كما أمر الرب موسى].[٣]

أما عن الأيام التي يصوموها اليهود فهي خمسة واحد منها فرضته شريعتهم، وهو اليوم الرابع والعشرون من الشهر السابع، وهو يوم الغفران والأربعة الأخرى يصومونها تذكارًا للرزايا والمصائب التي حلّت بهم بعد خراب إلهيكل الأوّل وكلها من وضع أحبارهم-، والأيام هي:

- اليوم الرابع والعشرون من الشهر السابع، كما جاء في الفقرة الأولى من الإصحاح التاسع بسفر (نحميا): «في اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع اجتمع بنو إسرائيل معفِّرين جسومهم بالرماد للاحتفال بيوم الصوم.

(١) الكاملي، ناصر الدين، الصوم في القديم والحديث، مطبعة الكونكورد، ص: ٢١. وانظر: الخطيب، علي، الصيام من البداية حتى الإسلام، الطبعة الاولى هـ١٤٠٠ – م١٩٨٠: ص: ١٦١-١٦٢ وانظر: غنيم، أحمد، فلسفة الصيام «في الديانة اليهودية، والنصرانية، وفي الإسلام»، مطبعة أبناء وهبة محمد حسان، ١٩٨٥، ص: ٦.

(٢) سفر صموئيل الثاني ٣: ٣٥.

(٣) سفر اللاويين ١٦: ٣١، ٢٣: ٢٧ العدد ٢٩: ٧.

- اليوم التاسع من الشهر الرابع من كل سنة، وهو يوم استيلاء الكلدان على أورشليم القدس.
- اليوم العاشر من الشهر الخامس، وهو يوم احتراق الهيكل والمدينة.
- اليوم الثالث من الشهر السابع، وهو يوم استباحة نبوخذ نصر لأورشليم.
- اليوم العاشر من الشهر العاشر وهو يوم حصار أورشليم.

وما يذكر هنا أن في صومهم هذه الأيام: لا يدهنون رؤوسهم بالزيت ويبكون وينوحون وينثرون الرماد على رؤوسهم ويتركون أيديهم غير مغسولة، ويلبسون المسوح، ولا يقرأ في هذا اليوم فصول الفرح أو ما يدعو إلى السرور، وينقطع الصائم عن العمل ويتم غلق المحلات التجارية، ولا يلبسون في اقدامهم الصنادل، بل يذهب الصائم فيهم إلى المعبد عاري القدمين وغيرها من الطقوس المكذوبة على الله وأنبيائه الاطهار[1].

فالحمد لله على نعمة الإسلام.

ثالثًا: انحراف مفهوم الرحمة في تشريع الصوم عند النَّصَارَى:

إن ما جاءت به النصرانية في موضوع الصيام -عبر مراحل تأثرها وتطورها- لا يسمى بشرع سماوي، فالكثير منه هو تشريع كنسي من وضع القساوسة والرهبان وضعوه حسب مقتضيات الزمان والمكان ثم صادقت عليه مجامعهم الكنسية التي عدت قراراتها ذات قدسية ملزمة على كل نصراني.

يقول الدكتور علي الخطيب في بيان ذلك: «ومع ظهور البواكير الأولى

(١) انظر: غنيم، أحمد، فلسفة الصيام «في الديانة اليهودية، والنصرانية، وفي الإسلام»، مطبعة أبناء وهبة محمد حسان، ١٩٨٥، ص: ٦.

للتشريع الكنسي تحددت بعض معالم الصيام، وما يجب تناوله من طعام، وما لا يجب عندما عرف الصيام بأنه: «شريعة كنسية تكيفها الكنيسة حسب مقتضيات الزمان والمكان»[1]، وقد قسم الدكتور صيام النصارى حسب الطوائف النصرانية إلى ثلاثة أقسام هي:

أ. الكنيسة الكاثوليكية:

وفيه «تعطي الكنيسة الكاثوليكية السلطة لرجال كنيستها بإعفاء من رغب من أتباعها من الواجبات الدينية ومنها الصيام، مما مكنها من فرض أصوام متفاوتة بجانب فرائض أخرى على المتهمين بجرائم متفاوتة، يمارسونها عدة سنوات لا شهورًا وأيامًا».

ب. الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية:

حيث تتفق الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية مع نظيرتها الكاثوليكية في الصوم الكبير ومدته خمسون يومًا أو خمسة وخمسون يومًا ولديهم طريقة فلكية لضبط وقته من عام إلى عام، حيث إن النسيء يحول دون وضع تاريخ ثابت له، وينبغي أن يبدأ بيوم الاثنين. ولها أصوام أخرى أهمها:

أ. صوم الأربعين يومًا؛ ويصومون قبلها أسبوعًا، سموه أسبوع الاستعداد، وبعده أسبوعًا آخر سموه أسبوع الآلام.

ب. صوم الميلاد؛ ومدته أربعون يومًا من ٢٥ من نوفمبر إلى ٦ من يناير.

ج. صوم العذراء؛ ومدته خمسون يومًا[2].

(١) انظر: الخطيب، علي، الصيام من البداية حتى الإسلام، مكتبة العصرية - بيروت ١٩٨٠م ص: ١٥٢، وأيضًا: أغناطيوس فرزلي: التعليم المسيحي الأرثوذكسي، مطبعة أناتوليى - الإسكندرية ص: ٨٤

(٢) سفر يونان الإصحاح ١: ١٧

ج. الكنيسة البروتستانتية:

وتترك الكنيسة البروتستانتية مسألة الصوم الشخصي الذي يقرر فيه الصائم لنفسه الصوم، وكيفيته، وَفْقَ رغبته الشخصية النابعة عن إحساسه الذاتي، فإذا ما صام وأفطر يحلّ له أكل ما يشتهيه من المأكولات، فهو عندهم مستحب وليس بواجب. وتختلف الكنيسة البروتستانتية عن الأرثوذكسية القبطية؛ بأن الأولى تنكر الصيام والثانية تتمسك به»[1].

فبهذا نلاحظ أن هذه الكنائس قد رفعت الأناجيل من طريق التشريع وأبعدتها عن التوجه له، وأعطت الكنيسة وحدها هذا الحق وفضلًا عن ذلك فهي لم تتفق بينها من جهة لون التكليف بالصيام، فلا اتفاق بينها على أن يكون فرضًا. كما لم تتفق في بداية أو نهاية مدة الصيام، بل إن أمر ذلك متروك للصائم ينهيه متى شاء ما دام لا يطيق الاستمرار على ذلك.

وغير ذلك من الفروق الكثيرة التي لا يسع المجال للحديث عنها ولكنها في المجمل اخرجت الصوم كشعيرة سماوية فيها الرحمة والتذكير بالفقراء إلى شعيرة لا معنى لها، بل إنها تُركت لتقدير البشر، بمعنى ان الشخص هو الذي يقرر فيه لنفسه الصوم، وكيفيته، وَفْقَ رغبته الشخصية النابعة عن إحساسه الذاتي، فإذا ما صام وأفطر يحلّ له أكل ما يشتهيه من المأكولات. فأين ذلك كله من التشريع الإلهي الرباني في القرآن الكريم.

(١) الخطيب: الصيام من البداية حتى الإسلام، ص: ١٦١-١٦٢.

المطلب الثاني
الرحمة في تشريع أحكام المعاملات في مقابل الشرائع الأخرى «معاملة الوالدين نموذجًا»

إن الناظر في آيات القرآن الكريم يجد أن بر الوالدين والإحسان إليهما والتحذير من عقوقهما كانت أصلًا من أصول التشريع في الرسالات السابقة، والقرآن الكريم أصدق دليل على ذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].

فهي إذن من شرائع أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة أنزلها وما ذلك إلا لاشتمالها على المصلحة العظيمة في بر الآباء والأمهات. حيث بقيت ثابتة على أصلها في القرآن الكريم وانحرفت في باقي الكتب والشرائع الأخرى قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: "يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه، ويذكرونه"(١).

وقبل الحديث عن بني إسرائيل نتحدث عن الرحمة في القرآن الكريم بالوالدين في مقابل هذه الشرائع على النحو التالي:

أولًا: الرحمة في معاملة الوالدين في القرآن الكريم:

تناول القرآن الكريم موضوع بر الوالدين بإحاطة بليغة، فقد عظم حق الوالدين ببيان ما يبذلان من جهد مضنٍ في سبيل أن يكبر الأولاد، فمهما بذل الأولاد من البر بعد ذلك فهو شيء قليل. وفي آيات سورة الإسراء وآيات

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١/ ٣١٦

من سورة لقمان وغيرهما في القرآن الكريم، تستشعر تلك الرحمة والرأفة من خلال حديث الآيات عن النهج الدقيق الذي يجب على المسلم إتباعه في معاملة الوالدين ومعاشرتهما، خصوصًا حينما يكبران ويضعفان، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤] وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٤-١٥].

فقد وضَّحت هذه الآيات وغيرها من آيات القرآن الكريم ما على الأبناء من واجب الإحسان والرحمة بالوالدين، أذكر ذلك من خلال مظاهر الرحمة التالية:

المظهر الأول: بر الوالدين واجب وقرين لعبادة الله

بر الوالدين ليس أمرًا مندوبًا أو مباحًا في القرآن، بل هو واجب وقرين لعبادة الله تعالى حتى ولو كانا كافرين، فقد قرن الله عبادته التي هي أهم شيء في الوجود بالإحسان للوالدين في سورة الإسراء فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] ومعنى قضى أي: أمر والأمر هنا يفيد الوجوب.

قال الإمام الماوردي: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ تقديره: "وأوصيكم بالوالدين إحسانًا، والإحسان تأدية حقوقهما ومجانبة عقوقهما والمحافظة على برهما"(١).

(١) تفسير الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون المحقق: السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/ ١٨٥

وليس ذلك فقط بل قرن شكره بشكرهما أيضًا في سورة لقمان فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان].

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: «قَدِمَتْ عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قَدِمَتْ عليّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك»[1]

المظهر الثاني: وجوب التواضع لهما والدعاء لهم بالرحمة:

في قوله ﷻ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ قال ابن عاشور: "ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعًا يبلغ حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد، لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما. والقصد من ذلك التخلق بشكره على أنعامهما السابقة عليه. وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه إذ يخفض جناحه متذللًا".[2]

المظهر الثالث: التحذير من أن يقع فيما يغضبهما.

عند تفسير في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ يقول ابن عاشور: "وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما: ﴿أُفٍّ﴾ خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنها غير دالة على أكثر من حصُول الضجر لقائلها دون شتم أو ذم، فيفهم منه النهي مما هو أشد أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى. ثم عطف عليه النهي عن

(١) رواه: مسلم أبو الحسن القشيري المسند الصحيح المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت٢/ ٦٩٦

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٥/ ٧٠

نهرهما لئلا يُحسب أن ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى. ثم أمر بإكرام القول لهما. والكريم من كل شيء". [1]

المظهر الرابع: حرمة العقوق تصل إلي درجة حرمة الشرك بالله تعالي

يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١] حيث جعل عقوقهما بمثابة الشرك به.

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» -ثلاثًا- قلنا: بلى، يا رسول الله! قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2].

المظهر الخامس: الرحمة في فتح باب التوبة للعاقين

بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء]. يكون الله عز وجل قد فتح بابًا عظيمًا من أبواب الرحمة بعباده وهو باب التوبة لمن يقع في عقوق الوالدين حيث نلحظ أن هذا في التقرير الإلهي جاء بعد ذكر آيات البر

وبعد فهذه بعض اشارات الرحمة التي تجلت في هذه الآيات ولا نغفل عما جاءت به السنة النبوية من الدعوة إلى الرحمة ليس فقط في حال حياتهما بل بعد مماتهما، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: هل بقي علي من بر أبواي شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال: نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنقاذ عهدهما وإكرام

(١) المرجع السابق
(٢) البخاري، حمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ١/ ٣٠

صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما[1].

وفي مقابل هذه الصورة العطرة نجد أن اليهود والنصارى قد حرفوا وبدلوا في هذا الجانب كغيره من جوانب التشريع عندهم.

ثانيًا: انحراف مفهوم الرحمة بالوالدين عند اليهود:

لقد نص القرآن الكريم على أن بر الوالدين شريعة مأمور بها في التوراة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣] فمن هنا علمنا أن بني إسرائيل قد أمروا بالبر والإحسان إلى الوالدين ولم يؤمروا بقتل الابن الذي يسب والديه كما حرف بذلك أحبارهم،[2] وفي النصوص المنقولة الآتية من كتبهم أذكر ذلك الانحراف على النحو التالي.

الصورة الأولى: القتل لمن يسب أبويه.

حكمت التوراة بالقتل على من يسب أبويه، جاء في سفر اللاويين: [كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل، قد سب أباه أو أمه، دمه عليه] [3].

وقد كان التقليد السائر عند اليهود في حالة عقوق الأبناء للوالدين أن يأتي الوالدان أو أحدهما - إلى شيوخ المدينة ويخبران بأن ولدهما معاند وسكير فيرجم.

فقد جاء في سفر التثنية: [إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع

(١) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، انظر: النيسابوري، الحاكم محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠، ٤/ ١٧١ وانظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، المحقق: السيد أبو المعاطي، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨ رقم الحديث: ١٥٧٢٦، ٣/ ٤٩٧.

(٢) نص السفر علي وجوب بر الوالدين واحترامهما، إذ جاء فيه: [تهابون كل إنسان أمه وأباه].

(٣) سفر اللاويين الإصحاح: ٢٠: ٩

لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما، يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلي شيوخ مدينته، وإلي باب مكانه، ويقولان لشيوخ مدينته: ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت].[1]

ولا شك أن مثل هذه الأحكام العنيفة غير موجودة أبدًا في القرآن مع التسليم بتحريم عقوق الوالدين أو التلفظ عليهم حتى باقل من ذلك بكثير من ألفاظ التضجر مما سبق الحديث عنه.

الصورة الثانية: الوقوع في التناقض بين يهود اليوم وبين نصوص توراتهم المزعومة.

يلاحظ أن فلاسفة اليهود الذين ذاع صيتهم في العصر الحديث أمثال «فولتير وروسو» قد أسهموا بجهد كبير في الدعوة إلى عقوق الوالدين، والي تفكيك الروابط الأسرية، ومن كلامهما: (أن الأسرة ليست من طبيعة المجتمع، .. وأن معرفة الجميل ليست واجبًا علي البنين لوالديهم وليست السلطة الأبوية بأمر دائم أو لازم).[2]

وقد نقلت هذا الكلام لبيان أن تحريفهم في المنقول والمفهوم مستمر بين الماضي والحاضر، وذلك حسب مصالحهم ومقتضيات عصرهم.

ثالثًا: انحراف مفهوم الرحمة بالوالدين عند النصارى:

فبالرغم من وجود شواهد صريحة وواضحة في الدعوة إلى حسن معاملة الآباء والأمهات في الإنجيل. إلا إنه لم يسلم هو أيضًا من التحريف كباقي تشريعاتهم وفيما يأتي بيان هذا التحريف في صورتين اثنتين.

(١) سفر التثنية الإصحاح: ٢١:
(٢) أبو بكر، محمّد ثاني، التّلمود وموقفه من الإلهيات عرض ونقد، رسالة دكتوراه، قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية ١٤٢٨هـ

الصورة الأولى: الرب في المسيحية يأخذ الأبناء بذنوب آبائهم إلى الجيل الثالث أو الرابع منهم.

أن الرب في المسيحية يأخذ الأبناء بذنوب آبائهم التي لم يرتكبها الأبناء فأين العدل واين التوبة وقبولها؟ ففي سفر العدد: [الرَّبُّ طَوِيلُ الرُّوحِ كَثِيرُ الإِحْسَانِ، يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَالسَّيِّئَةَ، لكِنَّهُ لاَ يُبْرِئُ. بَلْ يَجْعَلُ ذَنْبَ الآبَاءِ عَلَى الأَبْنَاءِ إِلَى الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ][1].

الصورة الثانية: تناقض نصوص الإنجيل بين الأمر ببرهم والدعوة لبغضهم.

جاء في إنجيل متى [أكرم أباك وأمك][2] ولكن هذا الكلام يناقضه ما جاء في إنجيل لوقا: [إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا].[3]

فهو نص واضح في تعلم الكراهية والبغض للآباء والأمهات والأولاد والإخوة.

وقد حاول بعض رهبانهم إيجاد مخرج لهذا التناقض منهم القس الدكتور منيس عبدالنور: "يقول: قصد المسيح بقوله: إن تابعيه يجب أن يبغضوا آباءهم وأمهاتهم معنى خاصًا، فكلمة «يبغض» هنا تفيد المحبة الأقل أو التقدير الأقل، فإنه ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس"[4].

ولا شك أن هذا الرد ما هو إلا قول عار عن الصحة. كيف؟ والنص

(١) سفر العدد اصحاح ١٤: ١٨
(٢) إنجيل متى اصحاح ١٩: ١٩
(٣) إنجيل لوقا اصحاح ١٤
(٤) عبدالنور، منيس، شُبهات وهميَّة حول الكتاب المقدس، كنيسة قصر الدوبارالإنجيلية، شارع الشيخ ريحان، جاردن سيتي-مصر وانظر: حسني، يوسف محمد، خرافات التوراة والإنجيل، دار الكتاب العربي، دمشق، ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى، ص ٣٢٠-٣٢١.

فيه تصريح لا يحتاج إلى عبقري -فهو لم يقل يحبهم أكثر مني، بل قال: يبغضهم- فأي كتاب سماوي هذا الذى يأمر أتباعه بكراهية آبائهم وأمهاتهم ومعاملتهم بهذا الجفاء. وكيف لسيدنا عيسى عليه السلام يأمر بإكرام الوالدين وينقض ذلك منعه أحد أتباعه أن يذهب ليدفن أباه[1].

فلا شك أن هذا النص وغيره من النصوص التي تكشف تحريفهم لمفهوم الرحمة عامة وبمعاملة الوالدين بشكل خاص وسبحان الله القائل عن كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

المطلب الثالث
الرحمة في تشريع أحكام العقوبات في مقابل التشريعات الأخرى "عقوبة السرقة نموذجًا"

أولًا: الرحمة في تشريع عقوبة السرقة في القرآن.

ينظر القرآن لحقوق الإنسان على أنها منحة إلهية، ليست منحة من مخلوق لمخلوق مثله، يمن بها عليه إن شاء أو يسلبها منه متى شاء، بل هي حقوق قررها الله له بمقتضى فطرته الإنسانية، فهي تتمتع بقدر كاف من إلهيبة والاحترام والقدسية فلا يتجرأ شخص على انتهاكها أو الاعتداء عليها[2].

ومن هذه الحقوق حفظ المال، فمن يعتدي عليه بسرقة أو غيرها فان القرآن يعتبر ذلك جريمة يعاقب عليها، يقول الله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

(١) إنجيل لوقا اصحاح ٢٧ : ١٩
(٢) الزحيلي، محمد، حقوق الإنسان في الإسلام، دراسة مقارنة مع الإعلان العالمي والإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان. دار ابن كثير، ص ١٣٢-١٣٣ وانظر: الحقيل، سليمان بن عبدالرحمن، حقوق الإنسان في الإسلام، دار اشبيليا، الرياض ١٩٩٩م ص ٥٣

فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ [المائدة:٣٨-٣٩].

ولكن القرآن الكريم حين شرع مثل هذه العقوبات لم يغفل جانب الرحمة فيه، وفيما يأتي صورتان توضحان ذلك:

الصورة الأولى: الرحمة في وضع شروط وضوابط دقيقة لتنفيذ حد السرقة

فلا قطع في أيام المجاعة والفقر، ولا في قليل المال الذي لم يبلغ النصاب، ولا لمن يسرق ليقتات أو يسد رمقه.. وغيرها الكثير من الشروط التي فصل فيها الفقهاء وكلها تدل دلالة واضحة على أن الهدف من العقوبات في الإسلام ما هي إلا زواجر لحفظ الفرد والمجتمع لبقائه آمنا مستقرًا.

الصورة الثانية: الرحمة في تشريع أبواب كثيرة لإسقاط العقوبة على السارق:

إن من أعظم هذه الأبواب هو باب التوبة ترغيبًا لهؤلاء العصاة في التوبة، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة]. قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "أي: من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه، أي: قبلت توبته ثم ذكر ابن عاشور رواية عن عطاء : إن جاء السارق تائبًا قبل القدرة عليه سقط عنه القطع»[1].

إذن فمع كون حد السرقة من العقوبات التي نص عليها القرآن الكريم إلا أن الرحمة هي السمة الأكثر وضوحا فيه مقارنة بالشرائع المحرفة.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٦/ ١٩٤

ثانيًا: انحراف مفهوم الرحمة في عقوبة السرقة عند اليهود

لقد تأثرت الأبعاد الاجتماعية للعقوبة في المجتمع اليهودي بالقيم والأعراف الاجتماعية وقولهم: إنهم -شعب الله المختار- لذلك سادت القسوة والظلم عندهم وخاصة من قبل أصحاب رؤوس الأموال ومارسوها إزاء الضعفاء والفقراء مما حدا بهم إلى استعمال القوة المفرطة والتعصب في العقوبات التي نسبوها إلى التوراة بعد صياغتها بالشكل الذي يناسب واقعهم[1]. وفيما يأتي صورتان من هذه الصور أنقلهما من خلال نصوص التوراة حيث ذكرت عقوبة السارق، وفيها تتضح القسوة والشدة التي كانت عندهم:

الصورة الاولى: أجازت التوراة قتل السارق.

فبالرغم من أن جريمة السرقة هي جريمة متعلقة بجريمة مالية وليس في قتل أو إزهاق روح من الأرواح. إلا أن التورة أهدرت دمم السارق جاء ذلك في سفر الخروج: [إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم.][2].

كما لوحظ أيضًا أن التوراة لم تضع تحديدًا معتبرًا بقيمة الشيء المسروق، فالعقوبة هذه تشمل أي سرقة سواء كانت معتبرة أو غير معتبرة.

الصورة الثانية: تطالب التوراة التعويض بأكثر مما سرق الجاني أو يسترق ويصيح عبدًا للمجني عليه.

يحكم على السارق في الشريعة اليهودية أن يرد خمسة أضعاف ما سرق من بقر أو أربعة أضعاف إذا كان المسروق غنمًا وربما يصل التعويض أحيانًا إلى سبعة أضعاف.

(١) انظر : أبو زهرة، محمد، العقوبة في الفقه الإسلامي، القاهرة، دار الفكر العربي، ص١٨-٢١
(٢) سفر الخروج اصحاح ٢٢

ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج تقول التوراة: [إذا سرق إنسان ثورًا أو شاة فذبحه أو باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم.][1].

وتقضي الشريعة اليهودية -في نفس الوقت- ببيع السارق نفسه إذا لم يستطع التعويض، ويعطى ثمنه إلى صاحب الشيء المسروق جاء ذلك في سفر التثنية: [إذا وجد رجل قد سرق نفسًا من إخوته بني إسرائيل واسترقه وباعه، يموت ذلك السارق، فتنزع الشر من وسطك].[2]

ثالثًا: انحراف مفهوم الرحمة في عقوبة السرقة عند النصارى

يعترض بعض نصارى اليوم على عقوبة السارق في القرآن الكريم وأن فيه وحشية وعنف لا يعرفونها هم في إنجيلهم، ولا يناسب مع العصر الذي نعيشه إلى غير ذلك من الشنشنة المعروفة عندهم وقبل الرد عليهم في المبحث القادم أنقل فيما يأتي صورتين من صور عقوبة السارق في إنجيلهم المكذوب.

الصورة الاولى: يعاقب الإنجيل بالرجم للسارق وعائلته:

فقد جاء في سفر يشوع: [وخان بنو إسرائيل خيانة في الحرام، فأخذ عخان بن كرمي بن زبدي بن زارح من سبط يهوذا من الحرام، فحمي غضب الرب على بني إسرائيل... فقال يشوع لعخان: «يا ابني، أعط الآن مجدًا للرب إله إسرائيل، واعترف له وأخبرني الآن مإذا عملت. لا تخف عني»،. فأجاب عخان يشوع وقال: "حقًا إني قد أخطأت إلى الرب إله إسرائيل وصنعت كذا وكذا، رأيت في الغنيمة رداء شنعاريًا نفيسًا، ومئتي شاقل فضة، ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلًا، فاشتهيتها وأخذتها. وها

(١) سفر الخروج اصحاح ٢٢
(٢) سفر التثنية اصحاح ٢٤

هي مطمورة في الأرض في وسط خيمتي، والفضة تحتها". فقال يشوع: "كيف كدرتنا؟ يكدرك الرب في هذا اليوم!". فقام بنو إسرائيل ورجموه ورجموا عائلته وأحرقوهم جميعًا بالنار، وأقاموا فوق عخان رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم. فرجع الرب عن حمو غضبه.][1]

يقول القديس أثناسيوس الرسولي: «عندما أُتهم عخان بالسرقة لم يحتج أنه كان غيورًا في الحروب، لكنه إذ ثبتت معصيته رجمه الشعب كله بالحجارة، وأخيرًا صار درسًا حيًا لكل الأجيال من جهة التزام المؤمن أن يبيد كل أثر للخطية في حياته دون مناقش لقد أباد يشوع بن نون كل أثر لعخان وكل ماله".[2]

الصورة الثانية: الصلب حتى الموت أو الحرق بالنار للسارق

جاء في إنجيل متى[3]: [وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة: هذا هو يسوع ملك اليهود حينئذ صلب معه لصان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار] وفيه أيضًا: [ويكون المأخوذ بالحرام يحرق بالنار هو وكل ما له، لأنه تعدى عهد الرب، ولأنه عمل قباحة في إسرائيل].

أما في تشريع القرآن فكل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها لا يتعداها لغيرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٦٤].

(١) سفر يشوع اصحاح ٢٦/٧
(٢) سفر يشوع اصحاح ٧/
(٣) إنجيل متى اصحاح ٣٧/٢٧

المبحث الثالث
الرد على شبهة وحشية التشريع في القرآن الكريم في مقابل التشريعات الأخرى

المطلب الأول
مضمون الشبهة

كثيرًا ما يثير اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل المختلفة، الشبهات حول الطبيعة «الوحشية» للقرآن وتشريعاته في مقابل الطبيعة «الوديعة» و«المسالمة» للمسيحية، أو اليهودية» وغيرهما. وللتدليل على هذا المعنى، يستدل هؤلاء دائمًا بآيات القتال في القرآن وآيات العين بالعين لإثبات هذه «التهمة» الموجهة إلى القرآن.

المطلب الثاني
وجوه بطلان الشبهة

وللرد عليهم نقول:

أولًا: إن الرحمة العظيمة تكمن في تشريع القصاص كونه حياة للنفوس:

قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة:١٧٩]. فمدار هذه الآية على بيان حكمة الله في القصاص، وذلك لحث النفوس على تقبل هذا الحكم لما فيه من المنفعة. إذ هو على خلاف ما يبدو للنظرة السطحية عند من يرونه موتًا فقط، فالتلويح بعقوبة القصاص العادل من القاتل يمنعه من اقتراف جريمته أصلًا، فيحظى بحياته ويفوز بروحه أولًا ثم يأمن المجتمع من جريمته ثانيًا، وفي هذا غاية الرحمة والعدل. ولذلك اختتمت الآية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: وهذا النداء إلى أصحاب العقول فيه اشارة إلى أن الحكمة من القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح.

ثانيًا: الرحمة في عدم تطبيق الحدود إلا بعد اكتمال الشروط.

أي أنه لا يتم تنفيذ حد من حدود الله إلا بعد تحقق شروط وضوابط حسب تلك العقوبة وعلى هذا فانه لا عقوبة مع وجود أدنى شبهة، وهذا هو عين العدل في الحدود.

ثالثًا: الرحمة في تشريع الأسباب الموجبة لا سقاط هذه العقوبة

فكما ان الله شرع الحدود شرع أيضًا أسبابًا متعددة لإسقاطها. ومن أول هذه الأسباب وأعظمها "العفو" لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ الوارد في سياق قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥]. فهذا الذي يعفو يكفر الله له من ذنوبه بقدر ما عفا: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ وكأن العفو شيء يتصدق به: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ والعفو بلا شك معناه إسقاط القصاص بدون عوض مادي أو معنوي وإنما ابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة.

رابعا: شريعة القرآن شريعة كاملة جمعت بين الرحمة والعدل.

فالقرآن الكريم قد جمع بين الرحمة والعدل في غاية الكمال، وفيما يأتي أمثلة واضحة لذلك:

أ. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٩٢] فهذا عدل واجب، من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء:٩٢] فهذه رحمة مستحبة مندوب إليها، من فعلها رفع الله درجته.

ب. وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥] فهذه رحمة.

ج. قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] فهذا عدل، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] فهذه رحمة.

د. قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] فهذه رحمة.

ه. قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فهذه رحمة، اذن فهذا هو العدل وهذه هي الرحمة لا يفترقان في القرآن الكريم فأينما وجدت العقوبة العادلة اتبعها الله عز وجل في محكم كتابه الكريم بباب من أبواب رحمته.

جعلني الله وإياكم من المرحومين وأصلي وأسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة

وبعد... فالحمد لله الأول والآخر، حمدًا يليق بعظمة جلاله، وحسن نواله وجماله، ويوافي نعمه، ويقابل كرمه؛ الحمد لله الذي رزقني فضل الاشتغال بآيات كتابه العزيز، ووفقني لإتمام هذا البحث، لأقف في نهايته مسجلًا أهم النتائج، فكانت على النحو التالي:

- الرحمة هي القاسم المشترك بين الديانات السماوية في أصل تنزلها، بقيت صافية نقية في القرآن، بينما طمستها يد التحريف في كتب اليهود والنصارى.
- بين البحث عظمة التشريع القرآني الذي جمع بين العدل والرحمة، يأمر بالقصاص ويتبعه بالعفو وكل ذلك في مقابل التشريعات المحرفة التي لوحظ أنها احتفظت ببعض مبادئ ورواسب الانتقام الفردي.
- للرحمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة وواسعة، فلا تكاد تجد قضية تناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها، ومن أبرز ما يميز هذه الرحمة في كتاب الله تعالى أنها محفوظة بحفظ الله لكتابه وستبقى إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

- تأثرت الأبعاد الاجتماعية للعقوبة في المجتمع اليهودي بالقيم والأعراف الاجتماعية وقولهم: إنهم -شعب الله المختار- لذلك سادت القسوة والظلم عندهم وخاصة من قبل أصحاب رؤوس الأموال ومارسوها إزاء الضعفاء والفقراء مما حدى بهم إلى استعمال القوة المفرطة والتعصب في العقوبات التي نسبوها إلى التوراة بعد صياغتها بالشكل الذي يناسب واقعهم.
- على الرغم من وجود بعض النصوص التي تتحدث عن الرحمة في التوراة والمزامير إلا أن هذه الرحمة والرأفة يفسّرها اليهود بأنها خاصة بهم لا لغيرهم لانهم شعب الله المختار.
- أن ما جاءت به النصرانية لا يسمى بشرع سماوي، فالكثير منه هو تشريع كنسي من وضع القساوسة والرهبان وضعوه حسب مقتضيات الزمان والمكان ثم صادقت عليه مجامعهم الكنسية التي عدت قراراتها ذات قدسية ملزمة على كل نصراني.
- قد تبدو بعض الأحكام والتشريعات التي نزل بها القرآن الكريم شاقة وثقيلة على النفوس المطبوعة على الضعف والقصور. ولكن الله عز وجل العليم بعباده وبضعفهم، لم يكلف عباده عنتًا ولم يوقع عليهم حرجًا في دينهم. بل جعل ﷻ الرحمة واللطف قرين تلك الأحكام المنزلة.
- الغاية من العقوبة في القرآن هي حماية الفضيلة، وحماية أبناء المجتمع من الانحراف، وجلب المنفعة العامّة للأفراد في المجتمع. وليس انتقامًاكما يتهم غيرنا الشريعة الإسلامية.

فهرس المصادو والمراجع

١. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه ـ
٢. ابن حنبل، أحمد، المسند، المحقق: السيد أبو المعاطي، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م
٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي ابن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩
٤. أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، المحقق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة العصرية، بيروت
٥. أغناطيوس، فرزلي: التعليم المسيحي الأرثوذكسي، مطبعة أناتوليى- الإسكندرية
٦. البخاري، أحمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٧. الزحيلي، محمد، حقوق الإنسان في الإسلام، دراسة مقارنة مع الإعلان العالمي والإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان. دار ابن كثير
٨. القرطبي، محمد بن احمد الانصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت -١٤٠٥ هـ ١٩٨٥
٩. ابن حميد، صالح بن عبدالله ، رفع الحرج والتيسير في الشريعة الإسلامية، ضوابطه وتطبيقات، رسالة دكتوراه، جامعة ام القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٩٨١م.

١٠. الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون المحقق: السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت
١١. عبدالنور، منيس، شُبهات وهميَّة حول الكتاب المقدس، كنيسة قصر الدوبارالإنجيلية، شارع الشيخ ريحان، جاردن سيتي-مصر.
١٢. مسلم، أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٣. أبو زهرة، محمد، العقوبة في الفقه الإسلامي، القاهرة، دار الفكر العربي.
١٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤م.
١٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ
١٦. الحقيل، سليمان بن عبدالرحمن، حقوق الإنسان في الإسلام، دار اشبيليا، الرياض ١٩٩٩م
١٧. الدسوقى، رمضان مصطفى، جهود علماء المسلمين في نقد الكتاب المقدس من القرن الثامن الهجري إلى العصر الحاضر "عرض ونقد"، رسالة دكتوراه، مكتبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر -١٤٢٤
١٨. السقار، منقذ بن محمود، هل افتقدنا المسيح على الصليب، دار الإسلام، مكة المكرمة ٢٠٠٧م
١٩. الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت
٢٠. الشاهين، أميمة أحمد، الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام، دار زهراء الشرق. القاهرة

٢١. العثماني، محمد تقي، ما هي النصرانية، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ١٩٨٤م.
٢٢. العمودي، صالح أحمد شواهد الرحمة في آيات الصيام
٢٣. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م
٢٤. الكاملي، ناصر الدين، الصوم في القديم والحديث، مطبعة الكونكورد.
٢٥. بيشوى، لنيافة الأنبا، ملاحظات حول مفهوم الرحمة والعدل في كتابات اسحق السرياني
٢٦. حسني، يوسف محمد، خرافات التوراة والإنجيل، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م
٢٧. زيدان، عبدالكريم، أصول الدعوة؛ مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة ٢٠٠١م.
٢٨. غنيم، أحمد، فلسفة الصيام «في الديانة اليهودية، والنصرانية، وفي الإسلام»، مطبعة أبناء وهبة محمد حسان، ١٩٨٥م
٢٩. لخطيب، علي، الصيام من البداية حتى الإسلام، مكتبة العصرية - بيروت ١٩٨٠م
٣٠. مسلم، صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت
٣١. وافي، علي عبدالواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، نهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م
٣٢. نصر الله، يوسف، نصر الله الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة: الدكتور، لكتاب: اليهودي على حسب التلمود للدكتور الفرنسي روهلنج، وكتاب للدكتور الفرنسي اشيل لوران بعنوان: تاريخ سورية

لسنة ١٨٤٠م، تصحيح وتعليق: الشيخ مصطفى بن أحمد الزرقا.

الأسفار والأناجيل:

١. إنجيل متى: طبعة دار الكتاب المقدس.
٢. انجينل لوقا طبعة دار الكتاب المقدس
٣. إنجيل يوحنا: طبعة دار الكتاب المقدس.
٤. سفر التثنية، طبعة وليم واطس.
٥. سفر الخروج، طبعة المكتبة القبطية
٦. سفر العدد، طبعة المكتبة القبطية
٧. سفر اللاويين طبعة المكتبة القبطية
٨. سفر صموئيل الأول طبعة المكتبة القبطية
٩. سفر يشوع طبعة المكتبة القبطية
١٠. سفر حزقيال منشورات المطبعة الكاثوليكية -بيروت
١١. سفر صموئيل الثاني طبعة المكتبة القبطية
١٢. سفر يونان طبعة دار المشرق، بيروت

وفي الختام، أسأله -تعالى- العفو عن الزَّلات، والتوفيق فيما هو آتٍ؛ إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين